أمنية الشاعر !

شاعر الحب والجمال لامرتين

بقلم الأستاذ صبحى إبراهيم الصالح

(تتمة ما نشر فى العدد الماضى)

... وكأنما عز على لامرتين أن يتعب روحه ويضنيها فى البحث عن الله ، أو كأنما شعر أنه أوفى من بحثه على الغاية التى يحق للبشر أن يوفوا عليها — فآثر أن يستريح راضياً بأمنية يتمناها مخافة أن يلجئه طول البحث إلى الكفران والجحود ، فتأوه مشتاقاً إلى الحقيقة ، ثم تمنى خاصة واحدة من خواص الملائكة ، نفض بصره عن حياتهم السرمدية ، وعن سعادتهم الأبدية ، ولم يرج سوى الإلهام له وللناس : لأن الإلهام هو الذى أرضى الملائكة ربها فسمعت وأطاعت ، وحرية التفكير هى التى بعثت البشر على الانطلاق فخضعوا طوعاً أو كرهاً ؛ ولكن الذين خضعوا كارهين ما برحوا يستغربون لماذا ألهم الله غيرهم الطاعة فأنشدوا لحن الخلود ، ولم يلهمهم هم فعاشوا فى شقاء من بعده جحيم ؟..

« ٩ — إن ما أتمناه من الملائكة ليس حياتهم السرمدية ،
لا ، ولا سعادتهم الأبدية !
ولكنه الإلهام . هذه الحاسة التى يستطيع بها القلب الجحود ،
أن ينشد لحن الخلود ! »

ويخيل إلى الشاعر أن الله أجابه إلى رجيته ، فأنار بصيرته بوميض من الإلهام ؛ فإذا هو لا يكتم فرحه بما يجول فى نفسه ، ولكنه يقر بأنه لا يقدر على إبداء هذا المعنى السامى الذى انكشف له ، فكان أعظم من الأمواج الصاخبة ، ومن الصواعق الغاضبة ، فيترك سره لليل ليظهر الناس عليه :

« ١٠ — يساور نفسى شىء أرق من الصَّبا اللعوب ،
سيذيعه الليل ويُفشيه !
شىء أعظم من الموج ، ومن الصاعقة الغضوب ،
وقلبى لا يستطيع أن يبديه ! »

ويقارن لامرتين بين هذا الوميض الذى انكشف لبصيرته وبين أسرار الطبيعة التى احتجبت عن بصره ، ويتسمع إلى لحن الوجود النفاذة إلى أعماق النفوس ، فيرى أنه لم يؤت من الإلهام إلا قليلا ، ويرى أن لتسبيح البحر لحناً أوقع من لحنه ، ولجذوع الغابات نغماً أروع من نغمه ، وللعواصف الهوج نشيداً أقوى من نشيده ، وللأنهار الجارية أغاريد أحلى من أغاريده : فالبحر لا يقذف إلى ضفافه أمواجه إلا ليسمع شكواها ، وجذوع الغابات لا ينحنى بعضها إلى بعض إلا لتلحن نجواها ، والعاصفة لا تملأ صدر السحاب إلا لتضاعف صوتها فى أعماقه ، والأنهار لا تتنفس إلا لتعلم الناس موسيقاها ؛ فلكل منها مزمار يطلق منه أنغاماً تسبيح بحمد الله وتقدس له ، وكلٌّ قد علم صلاته وتسبيحه ... أما الإنسان فإنه مهما صفت نفسه وراق قلبه يتمنى أن يحسن الغناء كما تحسنه الأمواج ، والجذوع ، والعواصف ، والأنهار ، وكل مظهر من مظاهر الطبيعة البكر ، ثم يجد أمنيته تصاعد فى عالم مجهول ، ثم لا يدرى أتعود عليه بالإخفاق أو النجاح . إلا أنه أخيراً يحقق فيعلم أن مزماره من صنع يده وهو لا يصنع إلا كاملا ، وأن مزامير الطبيعة من صنع الله وهو لا يصنع إلا كاملا ...

« ١١ — أيها الخضم الذى يقذف إلى ضفافه أمواجه الشاكية !
يا جذوع الغابات المتناجية !
يا عاصفة يعتلى بها السحاب ، ويا أنهاراً أنفاسها خرير !
آه ! لو أوتيت هذه المزامير ! »

ويلتفت الشاعر إلى نفسه ، ثم يخاطب روحه التى عنَّت كثيراً ولم تجب إلا قليلا ، ويعجب كيف يصبر نفسه مع الحب الذى يضطرم فى أحشائه كأنه نار لا ينطفىء لها لهيب ، أو إعصار ما تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ، ويتألم لهذه الروح التى جعلت حب الله صلاتها وتسبيحها ، وتقربت إليه بحق ندائها ، ولم ترُجه إلا أن يشرق عليها بنور معرفته ، لينقذها من حماسة كلها لهيب ، ومن ذهول كله وحشة ، ثم لم يستجب لها بشىء . ولو شاء أن يستجيب ، لأسر فى أعماقها اسمه الحبيب؛ ولو أسر اسمه لرضيت روح الشاعر ، واطمأن قلبه ، واهتدى عقله .

« ١٢ — وا روحاه ! هذا الإله الذى يضرمك حبه كأنه نار ..
أو تحترقين به كأنه إعصار !

لو استجاب – وأنت مشدوهة ذاهلة – لحاسنك الجياشة اللاهفة،
لأسمع اسمه في لفظة واحدة!»

وهنا يهتف بلامرتين صوت خفي : لا تعجل فإن الله يسر اسمه ، وما عليك إلا تلتمس زمانه ومكانه فتسمعه : يسر اسمه في أذن الطبيعة فتهمس به شفتاها وهي مختلية في صومعتها ، بعيدة عن الدنيا وضجتها ، قريبة من السماء ورحمتها . . . حينئذ تجلس الطبيعة إلى السماء جلسة المستمع إلى العالم ، فتحفظ منها اسم الله وتناجيه معها ، ثم تنتظران كلتاهما تنفس الصبح ليفضي إليهما بأسرار الملأ الأعلى ، أو ترقبان عتمة الليل لتسمعا سمر الكواكب ، فما يسمر منها كوكبان ، إلا على ذكر الخالق الرحمان .

« ١٣ – إن هذا الإسم لسر تهمس به الطبيعة في الخلوات ،
كما تحفظه السموات !
وكلما طالع الفجر أفضى بهذا السر ، وكلما تسامر كوكبان ،
كان صداهما الشجي الفتان!»

ويفرح الشاعر بما ألقى إليه الهاتف ، ويظن أنه وقف منه على السر المنشود ، وأنه قد وصل به إلى اسم المعبود ، فما عليه إلا أن يسهر ليله فيسمع الكواكب السامرة ، أو يثب مع الفجر ليعي أسراره الباهرة . . وفي هذين الوقتين السعيدين يريد أن تعي كلها حواسه أذناً تسمع وقلباً يعي ؛ بل يريد أن تعي العواصف والأعصار ، والأرض والنيران والبحار كلها آذاناً صاغية ، لأن من سكت في هذين الوقتين فإنما يسكت لنفسه ، ومن ضج فإنما يضج عليها . ويريد من الرياح أن تقف لتتملى هذا الإسم بعد أن طربت بألحانه ، ومن السموات أن تسترجعه وتردده بعد أن ثملت بخمرة عرفانه : فقد « خشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً » .

« ١٤ – إن العواصف والأعصار ، والأرض والنيران والبحار ،
خليقة أن تسكت لسماعه !
وإن الرياح الطروب بألحانه ، حرية أن تقف لعرفانه ،
والسموات لاسترجاعه ! »

وما أحوج المتألم إلى ذكر هذا الإسم المعظم وترداده ، لأن لوسيقاه رنة تشفي السقيم ؛ ومن أجدر من لامرتين بالراحة وهو تعب ، وبالشفاء وهو عليل ، وبالسرور وهو حزين ؟

لقد كان في الأثناء مضطرب الفكر ، موزع النفس ، متزايل الشاعر ، حتى أنه نظم قصيدته المعروفة (مالروحي حزينة Pourquoi Mor âme Ea est Triste) فلم يكن أحب إلى قلبه من وسيلة يتحول بها من أزمات نفسه الحادة إلى السكينة والاستقرار .

ألا وإنه قد وجد هذه الوسيلة ، وهي التي ستأسو ما جرحته يد الحياة ، وهي التي ستحيل وادي أتراحه جنة أفراح . فليقذف بحزنه بعيداً ، وليلق بأساه ظهرياً ، وليستدبر كل ما يعكر عين قلبه ، وليستقبل الحياة من جديد برضا وارتياح !

وتغمره السعادة وتلابس روحه ، ويضع في كفة ميزان ما نال من لذتها الحاضرة وفي كفة أخرى ما لازمه من ألم التعاسة الماضية ، فيجد نعيمه أرجح ، ويلفى التذاذه أغلب ، فلا يقيم لطول الزمن وقصره وزناً ، ويرى أن لحظة إيمانه تعادل إعدام حياته ، ويخشى أن تفارقه هذه السعادة التي لا يمكن أن تدوم لأنها بسعادة الملائكة أشبه ، وهي بين البشر كالنسيم المعطر يضوع بنفحاته ، ثم يعود من حيث أقبل تاركاً هذا المأخوذ برائحته للأعاصير والعواصف ، وللرياح والأنواء ، يناليها وتناليه ويصارعها فتصرعه .

خاف أن تزايله هذه السعادة إذا بقي على قيد الحياة ، فتمنى أن تكون ختام حياته ، وآخر لحظاته ، ليلاقي الحقيقة التي سعى إليها بوجه ناضر ، وليقف في أول شاطئ ما لخضمه من آخر : فأرسل هذه الأبيات الأخيرة بحرارة الشاعر ، وحماسة المؤمن :

« ١٥ – هذا الإسم وحده معاداً غير ممنون قمين أن يأسو سقامي
في هذا الوادي من الآلام !
جدير بي أن أهتف غير محزون : لينصرم آخر أيامي ،
فقد مجدت الإله ، ومرحى بالحمام!»

وإنك لتحس في هذه القصيدة روحاً متصوفة تذكرك بالذين سلفوا من أصحاب النزعة الروحية المجردة ، فمن أين لهذا الشاعر مثل هذه الروح ؟

ويزول عجبك متى علمت أن لامرتين – وإن لم يتلق التصوف علماً ، أو يذقه مسلكاً – كان صوفي المزاج ، مستمداً